حكايات نحبها جميعاً

(١٦)

جرأةٌ و لكن في الحقّ

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

فلَوْ كَانَ النِّساءُ كَمِثْلِ هَذِي!!

فِي سَهْرَةٍ مِنْ سَهَراتِ الشِّتَاء الطَّويلِ، اجتَمعَ شَملُ الصَّديقاتِ فِي بَيْتِ (مَيْسُون) ، وَبعدَ تَبادُلِ أَطرافِ الحَديثِ ، وَالاستفسَاراتِ عَنِ الأُمورِ الجَدِيدِةِ.

اقْترحَتْ (نَاديَا) أَنْ يَسْتَفِدْنَ مِنَ الوَقْتِ ، وعَلىٰ مَبدأ «سَاعَة ، وسَاعَة» وَبِالفِعْلِ ، وَافَقتِ الفَتَياتُ عَلَىٰ اقتِراحِ (نَاديَا).

وَوَقَعَ الاختِيارُ عَلىٰ أَنْ يَكُونَ الحَديثُ (لِنَاهِدٍ) ، وذَلِكَ لِسعَةِ اطِّلاعِهَا على كُتُبِ التَّراجِمِ والسِّيَرِ. وخاصَّةً عَملهَا فِي المَشْرُوعِ الكَبيرِ ،

وَالذي يبحثُ فِي طيَّاتِ الصَّفحاتِ الخَالدةِ لِنساءٍ مِنَ التَّاريخِ الإسلاميِّ.

وَبَعْدَ صلاةِ العِشاءِ ، تَنَاولَتِ الفَتَياتُ شَرابَ الوَردِ السَّاخنِ ، ثُمَّ جلسنَ حَولَ المدفَأةِ يَنْتَظِرْنَ حِكَايَةً مِنْ (نَاهِد)..

وَبَدأَتْ (نَاهِدُ) الحِكَايَةَ بِقَولِ الشَّاعِر:

فَلوْ كَانَ النِّساءُ كَمِثلِ هَذِي
لَفضِّلتِ النِّساءُ على الرِّجَالِ
فَمَا التَّأنيثُ لاسمِ الشَّمسِ عَيْبٌ
ومَا التَّذكيرُ فَخْرٌ لِلهِلالِ

ثُمَّ سردت لَهنَّ حِكايةَ تِلْكُمُ المَرأَة التي أَنزلَ اللهُ فيهَا قُرآناً يُتلىٰ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، وَهُوَ قَولُ اللهِ تَعَالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] .

إِنَّها السَّيِّدَةُ (خَولةُ بنتُ ثَعْلَبَة) رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأَرضَاهَا..

وَعقَّبَتْ (هِندٌ) عَلى تِلْكَ القصَّةِ الرَّائعةِ بِقَوْلِها:

ما أَجملَ الاستمَاعَ إلىٰ تَراجِمَ النِّساءِ الفَاضِلاتِ ، والأَجْمَلَ مِنْ ذلكَ أَنْ نَجعَلَ مِنْ تَراجِمِ حَياتِهِنَّ أُسوةً وقُدوَةً لنَا ، فَلعَمرِي ذلِكَ هُوَ الفَلاحُ وَالفَوْزُ ، وبهِ تَكونُ السَّعادةُ فِي الدَّارَينِ.

قالَتْ (مَيسونُ): لكِنْ لا بُدَّ للبَاحِثينَ والبَاحِثاتِ مِن أَنْ يُنقِّبُوا فِي بُطُونِ الكُتُبِ عَنْ أَمثالِ السَّيدَة خَولةَ وغيرها ، ممَّنْ سطَّرنَ صَفَحاتٍ نَيِّرةً عَلىٰ جَبينِ التَّاريخِ ، سَواءً كَانَ ذلكَ فِي مَجَالاتِ العِلمِ ، أَمِ الثَّقافَةِ ، أَمِ

الشَّجاعَةِ ، أَم البَذْلِ والعَطَاءِ ، أَو مَا إلى هُنالِكَ..

وَأَخْرَجَتْ (نَاهِدٌ) مِنْ جَيْبِهَا وَرقَةً صَغِيرةً ، وكتبتْ عَلَيْهَا جُملةً لَمْ تعرفْ صَدِيْقَاتُهَا فَحْوَاهَا.

فَسألَتها (مَيسون): وَمَاذا يَدورُ فِي ذِهْنِكِ يا صَدِيْقَتَنَا العَزِيْزَة؟!

ابتَسَمَتْ (نَاهِدٌ) وَقالَتْ: .. وَإِنَّ غَداً لِنَاظِرِهِ قَرِيْبٌ!!

الْتَفَتَتْ (مَيسونُ) إلىٰ صَدِيْقَاتِهَا وَقالَتْ: وَمَاذا تَعنِي صَدِيْقَتُنَا (نَاهِدٌ) بِتلكَ العِبارَةِ؟!

فَقالَتْ (هِندُ): أَي سَنرَىٰ غَداً شَيئاً كُنَّا نَتَمنَّىٰ رُؤيتَهُ ، وَلعلَّ ذلكَ مَزِيداً مِنَ التَّراجمِ حَولَ حَياةِ نِساءٍ فاضِلاتٍ!!

ثُمَّ راحَتْ (نَاهِدٌ) تُحدِّثُ صَدِيْقَاتِها عَنْ عَمَلِهَا الضَّخْمِ.. وعَمَّا تُعانِيهِ مِنْ مَتَاعِبِ البَحْثِ والتَّفتيشِ ، وَلولا لذَّةُ طَلبِ العِلْمِ لتركتْ ذلكَ كُلّهُ!

ثُمَّ حدَّثتهنَّ عَنِ التَّضْحِياتِ التي قدَّمها الأجدادُ فِي سَبيْلِ نَشرِ العِلْمِ الصَّافِي والمُوثَّقِ.. بينَما نَحنُ المُقصِّرونَ والمُقصِّراتُ لا نَقرأُ إلاّ قَليلاً ، وَلا نَبْحَثُ إلاّ قَليلاً ، وَلا نَطْلُبُ إلاّ الرَّاحَةَ والسُّكُونَ والدَّعةَ والخُنُوع!!

وَأَكثريَّتُنا نَعيشُ علىٰ الأَحْلاَمِ والأَمانِي ، فَنحنُ نَجلسُ علىٰ الأَسِرَّةِ والأَرائِكِ ونَحلمُ أَنْ نُصْبِحَ مثلَ نِساءِ الصَّحابَةِ والتَّابعين ، وهَيهَاتَ أَنْ يَكُونَ لنَا ذلكَ!!

أَجلْ!

لَقَدْ كَانَ الوَاحِدُ مِنَ الرّعِيلِ الأوَّلِ يَسيرُ مِنْ مكَّةَ المكرَّمةِ إلىٰ بَغدادَ ، ثُمَّ إلى دِمَشق ، لِكَيْ يَبحثَ عَنْ رَجُلٍ يَحفظُ حَدِيثاً مِنْ أَحادِيثِ المُصْطَفَىٰ ﷺ!

وَكَانَ الواحدُ مِنْهُمْ يَبيعُ خَشَبَ سَقْفِ بيتهِ لِيشتَرِي بهِ كُتُباً وَمَحابِرَ!!

وَكانتِ الوَاحِدَةُ مِنهنَّ تَطلبُ مَهْراً لهَا بِضعَ آياتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ!!

فَمَاذا عَنَّا فِي هذهِ الأيّام؟!

عِلماً أَنَّ هذا الجِيلَ المُعاصِرَ قَدْ تَوفَّرَتْ لهُ أُمُورٌ ما تَوفَّرَتْ لِلسَّابقينَ ، فالكُتُبُ المَطْبُوعَةُ ، والقَنَواتُ الفَضائيَّةُ وأجهِزَةُ الحَاسُوبِ ، والإنْتَرنِيت!!

وَمَعَ ذَلِكَ لا نَرىٰ إقبالاً كَبِيراً عَلَىٰ العِلمِ والتَّعلُّمِ.

وَهكذا دارَ الحَدِيثُ بينَ الفَتَياتِ حَولَ هَذا المِحْوَر ، وحاولنَ التَّوصُّلَ إلى صِيغةٍ مُرْضِيَةٍ حَولَ كَيفيَّةِ تَداركِ التَّقْصيرِ فِي مَجَالاتِ العِلمِ ، وأَكَّدنَ عَلى ضَرورَةِ البَحثِ والمُثابَرَةِ والتَّفْتِيشِ فِي كُتُبِ التُّراثِ عَنْ كُلِّ مَا هُوَ مُفِيدٌ ونَافِعٌ.

فِي صُفوفِ جَيشِ عَليٍّ
رَضيَ اللهُ عَنْهُ!!

وَكانَ لِتِلكَ السَّهرةِ صَدًى فِي أَوساطِ الفَتَياتِ.

أَمَّا (نَاهدٌ) فَراحَتْ تَبحثُ فِي حَياةِ التَّابعيَّاتِ عَنْ وَاحِدَةٍ تُشْبِهُ حَياةَ (السَّيِّدَة خولةَ بنت

ثَعلَبة) ، ولكنَ هَلْ تَدورُ عَجَلَةُ الزَّمان ، ليكونَ فِي عَصرِ التَّابعينَ مَا كانَ فِي عَصْرِ الصَّحابَةِ الكِرامِ؟!

وَبعدَ بَحثٍ وتَفْتِيشٍ تَوصَّلتْ إلىٰ كِتَابةِ ملخَّصٍ مُفيدٍ عَنْ وَاحدةٍ مِنْ عَصرِ التَّابِعين ، وَهِيَ (السَّيدةُ سَوْدَةُ بنتُ عَمَارة).

فَفِي زَمَنِ الفِتنَةِ التي حَدَثَتْ بينَ الخَليفَةِ الرَّاشِدِ عَليِّ بنِ أَبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، وَبينَ وَالي الشَّام مُعاويةَ بنِ أَبي سُفيان رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، حَدَثَتْ مُناوَشَاتٌ ومَعَاركُ وَاختِلافَاتٌ فِي وُجهاتِ النَّظَرِ ، وَأَسفَرَ ذلكَ عَنْ مَعْرَكَةِ صِفِّين.

وَوَقَفَ قِسمٌ مِنَ المُسْلِمين فِي صُفوفِ عَليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، ومَنْهُمْ السَّيدةُ سَودةُ بِنتُ عَمارَة ، ووقفَ قِسمٌ آخرُ فِي صُفوفِ مُعاوِية.

وسَقَطَ القَتْلَىٰ مِنَ الطَّرَفين.. وَكانَ ما كَانَ ، وبَقِيَتِ القَلاقِلُ وَالفِتَنُ حَتَّىٰ سَقطَ عَليٌّ شَهيداً ، فآلَ أَمرُ الخِلافَةِ إلى مُعاوِيَةَ ، وتحوَّلَتْ عَاصِمَةُ الخِلافَةِ الرَّاشدَةِ مِنَ المَدينةِ المُنَوَّرةِ إلى الخِلافةِ الأُمويَّةِ وعَاصِمَتهَا دِمَشق.. ولمّا استقرَّ الحَالُ إلى مُعاويَةَ وَوطَّدَ حُكْمَهُ.. لم يَعدْ أَحدٌ يَجرؤُ أَنْ يَمْدَحَ عَلياً وَجَماعتَهُ.. لكنَّ سَوْدَةَ كانَ لَها مَوْقِفٌ جَرِيءٌ وَشُجَاعٌ.

فِي قَصْرِ مُعَاوِيةَ الأَخْضَرِ!!

وَدارَ الزَّمنُ دورتَهُ ، واضطُرَّتِ السَّيدةُ (سودةُ بنتُ عَمارة) لِمُغادَرَةِ بَلدهَا اليَمَن ، والتَّوجُّهِ إلىٰ دِمَشق ، وَذَلِكَ لِمُقَابلة الخَليفةِ مُعَاوِيَة ، فَهَلْ نَافَقَتْ أَمَامَهُ؟ هَلْ تخلَّتْ عَنْ وُقُوفِهَا مَعَ أَبي الحَسنِ عَليٍّ؟!

أَبداً ، إِنَّما كَانَتْ جَرِيئَةً صَرِيْحَةً لا تَخْشَىٰ إِلاّ اللهَ وَحدَهُ.

وَملخَّصُ ما جَرىٰ بينَها وَبينَ مُعاوية، وَذلكَ فِي قَصْرِهِ القَرِيبِ مِنَ المَسجِدِ الأُمَوِيِّ بِدِمَشْق ، يُحدِّثُنا عَنهُ المُؤرِّخُونَ ، فيقُولونَ:

استَأْذَنَتْ (سَودةُ بنت عَمَارَة) عَلىٰ مُعَاوِيَةَ بنِ أَبي سُفيانِ رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، فأَذِنَ لها ، فَأَلْقَتْ عَليهِ السَّلام.

ثُمَّ قالَ لَها: هِيه ، يا بِنتَ الكرامِ ، كَيفَ أَنْتِ؟

قالَتْ: بِخَيرٍ ـ والحَمدُ للهِ ـ يا أَمِيرَ المُؤمنين.

فَقَالَ لَها: أَلستِ القائِلَةَ لأَخيكِ (يَومَ صِفِّين):

شَمِّرْ كَفِعْلِ أَبيكَ يَا بْنَ عَمَارَةَ
يَومَ الطِّعَانِ وَملتقَىٰ الأَقْرانِ

وانْصُرْ عَلياً والحَسَنَ ورَهْطَهُ

واقْصِدْ لِهِندٍ وابنهَا بِهَوانِ

إنَّ الإمامَ أَخُو النَّبيِّ مُحمَّدٍ

عَلَمُ الهُدَىٰ ، ومَنَارةُ الإيمانِ

فَقُدِ الجُيوشَ وَسِرْ أَمامَ لِوائِهِ

قُدُمَاً بِأَبيضَ صَارمٍ وَسِنَانِ

فَأَجابَتْ دُونَ تَردُّدٍ أَوْ وَجَلٍ: أَنا القَائِلَةُ يا أَمِيْرَ المُؤمنينَ ، وما مثْلِي رَغِبَ عَنِ الحقِّ ولا اعتذرَ إليكَ بِالكَذِبِ.

قالَ: فما حَمَلكِ على ذَلِكَ؟

قالَتْ: حُبُّ عَليٍّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ، واتِّباعُ الحقِّ.

قالَ: واللهِ ما أَرىٰ عَليكِ مِنْ أَثَرِ عَليٍّ شَيئاً.

فقالَتْ: أُنشِدُكَ اللهَ يا أَميرَ المُؤمنين وإِعادَةَ ما مَضَىٰ وتَذْكَارَ ما قَدْ نُسِي.

فَقالَ مُعاوِيَةُ: هَيهَاتَ هَيهَات! ما مِثلُ مَقَامِ أَخِيكِ يُنسىٰ ، ولا لَقِيتُ مِنْ أَحدٍ مَا لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ وَقومِ أَخيكِ.

قَالَتْ: صَدَقَ فُوكَ يا أَميرَ المُؤمنينَ ، واللهِ لَمْ يَكُنْ أَخِي ذَمِيمَ المَقامِ ، ولا خَفِيَّ المَكَانِ ، وَكانَ وَاللهِ كَقولِ الخَنْسَاءِ:

وإِنَّ صَخراً لتَأْتَمُّ الهُداةُ بهِ

كَـأَنَّـهُ عَلَـمٌ فِـي رَأْسِـهِ نَـارُ

ثُمَّ قَالَتْ: باللهِ أَسأَلُ أَمِيرَ المُؤمنينَ إِعفَائِي مِمَّا استعفيتُ مِنْهُ.

قالَ: إِذَاً ما حَاجَتُكِ؟

قَالَتْ ـ وَهِيَ تَشكُو عَامِلَ مُعاوِيَةَ علىٰ اليَمَنِ ـ: يا أَميرَ المُؤمِنِينَ! إِنَّكَ أَصبحتَ للنَّاسِ سَيِّداً ، ولأُمُورِهِمْ مُتَقَلِّداً ، واللهُ عزَّ وَجلَّ سائِلُكَ

عَنْ أَمْرِنَا ، وعَمَّا افترضَ عَليكَ مِنْ حَقِّنا ، ولا يزالُ يَقْدُمُ عَلينَا مَنْ يَنهضُ بعزِّكَ ، ويَبطشُ بِسُلطانِكَ ، فَيحْصدَنَا حَصَادَ السُّنبلِ ، ويدوسَنَا دياسَ البَقَرِ ، ويسُومنَا الخَسِيسَةَ ، وَيسأَلُنَا الجَليلةَ ، فماذا تَرىٰ لِذلكَ العَامِلِ يا أَميرَ المُؤمنينَ؟!

فقالَ مُعاوِيَةُ: وَهلْ اشتَكَيْتِ مِثلَ هذا لِعليٍّ؟!

فَدمعَتْ عَينَاهُا ، ثُمَّ قالَتْ: لَقد أَتيتهُ ذاتَ لَيلةٍ ، فَوَجدتهُ قائِماً يُصلِّي ، فلمّا انفتَلَ مِنْ مصلاَّهُ قالَ لِي: أَلَكِ حاجَةٌ؟

فأَخبرتُهُ خَبرَ عامِلهِ، فَبكَى رضي الله عنه ، ثُمَّ رَفع يَديهِ وقالَ: اللَّهُمَّ أَنتَ الشَّاهِدُ عليَّ وعليهِم ، إنِّي لَمْ آمُرهمْ بِظُلْمِ خَلْقِكَ ، ولا بِتَرْكِ حَقِّكَ، ثُمّ أَخذَ قِطعةً وكَتَبَ عليها: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ

ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود: ٨٥-٨٦] **وَأَمَرَ بِعَزْلِ عامِلِهِ مُبَاشَرَةً.**

عِنَدئذٍ قالَ مُعاوِيةُ رَضيَ اللهُ عَنْهُ لِمنْ حَولَهُ: اكْتُبوا لَها بإنصافِها، وردِّ مالِها، والعَدلِ عَليهَا، ثُمَّ أَمرَ بردِّها إلى اليَمَنِ دُونَ أَذىً ولا نَصَب..

فَخَرَجَتْ مِنَ الشَّام وَهِيَ تُردِّدُ قَولَ اللهِ تَعالىٰ: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

والحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ